



بحكم تدوير القضية السورية، وبحكم اعتبار روسيا صاحبة اليد العليا في الساحة السورية عسكرياً وسياسياً، تجدها تخوض جملة من المعارك مع قوى متعددة، وعلى جبهات مختلفة، ضامنة نصرها على تلك القوى، باستثناء واحدة، تعتقدها الأسهل والأضمن نجاحاً، لكنها الأصعب، والأضمن فشلاً.

تخوض روسيا، مع أميركا والغرب، معارك سياسية ودبلوماسية ذات طبيعة "مناكفاتية" ابتزازية حلبتها على الغالب مجلس الأمن؛ تمثلت بتسجيل نقاط سوداء على موسكو، لاستخدامها حق النقض (الفيتو) تسعة مرات. ترافق ذلك مع مناورات ومشادات سياسية بشأن القرارات الدولية المتعلقة بسوريا، وخصوصاً إصرارها على تغريم تلك القرارات بما يجعلها مستحيلة التطبيق، أو سهلة الفوز فوقها، والاتفاق عليها، أو إفراغها من مضمونها. تحت يافطة "الحرص على سورية والسوريين"، يفوق الغرب على روسيا أي انفراج في ملفاتها الأخرى، حيث أرادت الملف السوري سلعة المقايضة من أجل تلك الملفات، ولكنها في المجمل تبقى صاحبة اليد الأعلى فيما يخص سورية، مقارنة مع الغرب.

عقدت روسيا، مع إيران، في سورية زواج إكراه، أو شراكة اضطرارية تأخذ أحياناً شكل الحرب؛ لكنها في المجمل مقدور عليها. ففي هذه العلاقة، تستفيد موسكو من موقف العالم السلي تجاه إيران، وتستفيد من اضطرار إيران لروسيا لتكون رابحة ابتزازياً في الحالتين، على الرغم من العباء الذي يلقيه سجل إيران الأسود على الحسابات الروسية. ومعروف أنه ما أن ترتب روسيا أمراً يتعلق بإحكام سيطرتها على سورية، إلا لتجد إيران وقد خرّبته بسياسات ابتزازية مضادة. وعلى الرغم من ذلك، تبقى المكاسب أكبر من الخسائر لروسيا التي ربما تعلمت من درس أفغانستان، وغياب أي حل، حتى ولو كان

ابتزازياً وانتهازيأً.

هناك معركة محرجة لروسيا في القضية السورية مع إسرائيل التي تعثّر وتتوّرّ، وتؤثّر استمرار القتل والدمار في سوريا؛ الأمر الذي يقلق روسيا التي تسعى إلى إيصال رسالة للعالم بأن الأمور في سوريا تهدأ؛ وما بقي أمامها إلا إعادة تأهيل النظام. وفي مقابل ذلك التنفيص الإسرائيلي لروسيا، تعتقد الأخيرة أن كل أبيب نقطة إيجابية لصالح روسيا عند الغرب؛ فإسرائيل إحدى أدوات روسيا لتقديم أوراق الاعتماد الروسية لدى الغرب. وإن كان هناك قتل ودمير وتحقيق مآرب إسرائيل في سوريا، فهي من جيب غيرها؛ وحالها ها هنا كالذى يهب ما لا يملك أو يهمه لمن لا يستحق. وفي النهاية، كلما استمر التوتر، استمر النظام الذي تحرّص إسرائيل على بقائه؛ وهذا ما تريده موسكو أساساً.

تخوض روسيا أيضاً معركةً مع الأمم المتحدة، فلا يعني استخدام حق النقض (الفيتو) تسعة مرات (والعاشرة على الأبواب) لحماية قاتل، ولسحق حق شعب في العدل والأمان، إخلالاً بحقوق الإنسان وأمنه، بل هو إخلال بالتوازن والتواافق الدولي، وتعريف للأمن والسلام العالميين للخطر. هذا أيضاً مقدور عليه لدولٍ كروسيا آخر اهتماماتها شأنٌ كهذا، بحكم ممارستها واحتكمامها لقانون القوة، لا لقوة القانون في سياستها الداخلية والخارجية، مهما لطفت ذلك، وغلفته بغطاء من "الغوبالزية الذكية".

معركة روسيا الأساسية والأصعب مع الشعب السوري. إنها تشبه تماماً معركة "نظام دمشق" مع شعبه. من هنا، تراها تشبه هذا "النظام" إلى حد التطابق في المسلك والموقف والنهج. لهذه المعركة عدة أوجه وأشكال؛ ففي بعده العسكري، حولت روسيا سورية إلى حقل تجارب لأسلحتها (وبكل وقاحة تفاخر بذلك) الأمر الذي شكّل إهانة كبيرة لشعب سوريا، وحتى للنظام" الذي يدّعي السيادة والشرعية. أقرّت روسيا ذاتها بأنها جرّيت مئات أنواع الأسلحة التي أثبتت فاعليتها؛ وكان السوريين تحولوا إلى فئران تجارب قتالهم محلّ.

على الصعيد السياسي، لا يفوت سورياً أن روسيا تحجز بيدها مفتاح مجلس الأمن، وتحول دون تجريم من ارتكب كل هذه الفظاعات بحق السوريين ولبلدهم. إضافة إلى ذلك، سعت روسيا إلى أن لا يأخذ أي قرار دولي يخصّ السوريين طريقه إلى التنفيذ: (بيان جنيف، القرار 2118، القرار 2254)؛ وتجلّى ذلك بمساعدة النظام في تلاؤه ورفضه أي انخراط في العملية السياسية. وقد سعت روسيا إلى التحكّم بالمبعوث الأممي، استيفان دي ميستورا وابتزازه؛ فصار تحت رحمة إقرار وزير الخارجية، سيرغي لافروف، أي جولة من "جنيف"؛ وكأنه مبعوث لها، لا للأمم المتحدة. كما أنها كانت تسحبه إلى "أستانا" شاهد زور، على الرغم من أن أستانة ليست تحت يافطة الأمم المتحدة.

في العملية السياسية المتعثرة، جعلت روسيا شغلها الشاغل، منذ البداية، نصف مصداقية المعارضة؛ وتحولت إلى صدى لصوت منظومة الاستبداد في دمشق، وردت عبارات مندوب النظام في الأمم المتحدة، بشار الجعفري، بأنه لا يوجد من تفاوضه "حكومة الجمهورية العربية السورية" على الضفة الأخرى؛ والمعارضة عملاً لدول أجنبية وإرهابيون ومتاجرون. وما عقدت لقاءات مع فصائل ثورية سورية في "أستانا" إلا وفي رأسها أن هؤلاء سيكونون في جيبيها، وينفذون ما تريد.

سعت روسيا إلى تتفيه مسار جنيف، ونصف أي مقاييس أو نتائج محتملة له. كما أنها سعت إلى إفراغ "أستانا" التي اخترعتها من أي مضمون، عبر وعود خلبية بثت الإحباط واليأس في صفوف الثورة وحواضنها. وأخيراً، خرج الرئيس الروسي، فلاديمير بوتين، على السوريين بفكرة مؤتمر لـ"شعوب سورية" كي ينسف كل ما قبله من مشاريع الحل السياسي، وليشرعن احتلاله سورية عبر جلب معارضي من صنعه وصناعة مخابرات "النظام"، كي تبصم له على ما يريد في "مصالحة" مهينة

أخيراً، لا بد من القول إن هناك سوريين يقدرون لروسيا حفاظها على النظام من السقوط أو الحؤول دون السوق إلى محاكم جرائم الحرب، لكن النسبة الأكبر من السوريين يتذمرون غضبهم وحقدتهم على الروس، ذاك الذي يكتونه تجاه "النظام"، أكان هؤلاء مشردين في الداخل السوري أم لاجئين، أكانوا أهل معتقدين أم مقهورين في زنزانات "النظام"، ويموتون تحت التعذيب الوحشي؛ أم أولئك الذين لازالوا على ضفة النظام، ولكنهم فقدوا فلذات أكبادهم، كي يبقى متربعاً على كرسي الدم. يعرف هؤلاء السوريون أن روسيا هي المتسبب الأساس بعذاباتهم، بحكم حمايتها النظام الفائل. كل واحد من هؤلاء مشروع عدو للروس، حاضراً ومستقبلاً. تلك هي المعركة الأصعب أمام الروس. تلك معركة لا يمكن كسبها؛ وفيها تكمن الهزيمة النكراء لروسيا.وها هي روسيا التي صارت على "مصالحات" مهينة للسوريين، بعد قصف وحصار وتجويع، قام به النظام وإيران، وتتوج بشاعتها بالقيام بالشيء نفسه؛ ولكن على نطاق أوسع من خلال دعوتها إلى "حميميم" أو "سوتشي"، معتقدة أن ذلك سيجلب الهدوء، ويعيد البلاد إلى وضع طبيعي، وكأن شيئاً لم يحدث. تتجاوز روسيا، بكل صلف ووقاحة، كل ما حدث، وتسعى إلى إعادة التجربة السورية بالأدوات نفسها، بأمل أن تحصل على نتائج مختلفة. ما سيحدث هو عكس ذلك تماماً، وسيفاقم احتقار السوريين للأفعال الروسية وحقدتهم عليها. وهذا ترجم بداية برفض "سوتشي" بوتين الذي يذكر بـ"مصالحات" النظام المهينة؛ وسيأخذ الفعل السوري مستقبلاً أشكالاً لا طائل لروسيا بمعالجاتها، وخصوصاً أن جبهاتها وأحملها متعددة؛ وأصعبها معركتها مع شعبٍ قرر أن يكون حراً، وما عاد لديه ما يخسره.

المصادر:

العربي الجديد